مصادر التفسير عند ابن قتيبة في (تأويل مشكل القرآن)

Sources of interpretation according to Ibn Qutaiba in (Tawil Mushkal Al-Quraan)

ط.د. محمد بن قويدر*

أ.د. عبد العليم بوفاتح♣

تاريخ الإرسال: 2021/07/15	تاريخ القبول: 2021/12/09	تاريخ النشر: 2023/05/10

الملخص:

يتناول المقال مصادر تفسير القرآن عند ابن قتيبة في (تأويل مشكل القرآن)، وقد تنوّعت تلك المصادر ما بين أقوال الصّحابة كعبد الله بن عباس، والتّابعين كمجاهد، وإلى ما صُنِّف كتفسير الصنعاني، وغيرها، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل تعدّاه إلى كتب اللغة كمعجم العين، وكتاب سيبويه، إضافة إلى ما نقله من الكتب المقدّسة، منها التوراة، وكتب العجم، كما أنّه أشار إلى شيء من مصنَّفاته في الموضوع. وبجمع هذه المصادر المتنوّعة ما بين ما له علاقة بعلوم القرآن، وما له علاقة باللغة، إضافة إلى مصادر أخرى، يمكن للقارئ أن يأخذ فكرة عن القيمة العلمية للكتاب والتي هي من صميم قيمة تلك المصادر.

الكلمات المفتاحية: قرآن، تفسير، مصادر، مشكل، تأويل.

Abstract:

This article explores the sources of kinship interpretation in the interpretation of the quraan problem، from the testimony of Abbas's son and followers to the interpretation classified as Sanani، not only that، but also other sources. It brought him to language books، like the Bible، and the Bible، and he mentioned some of his works. By collecting these different sources، from those related to quraan science to those related to language،

* جامعة عمار ثليجي الأغواط، مخبر علوم اللسان،
mo.benkouider@lagh-univ.dz

♣ جامعة عمار ثليجي الأغواط، مخبر علوم اللسان، abdelalimb1@gmail.com

as well as other sources، readers can understand the scientific value of books، which is the core value of these sources.

***Key words**: Quran، interpretation، sources.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: محمد بن قويدر mo.benkouider@lagh-univ.dz

مقدمة:

إنّ الحديث عن التفسير وأنواعه وتطوّره، وعن مدارسه، وعن روّاده يطول، والمقام لا يسعنا في ذلك، لذا فإنّنا سنختصر ونعتصر، فنقول أن التفسير يقسّم أساسا إلى قسمين: "التفسير بالمأثور"، نحو تفسير (جامع البيان) لابن جرير الطبري. و "التفسير بالرأي"،نحو تفسير (مفاتيح الغيب) للفخر الرازي. ويضيف بعضهم أقساما أخرى، لا تخرج عن القسمين الرئيسين السابقين، من ذلك "التفسير المذهبي"، نحو تفاسير السنة، وتفاسير الشيعة. و"التفسير الفقهي"، نحو (أحكام القرآن) لابن العربي. و"التفسير اللغوي" الذي يجعل من علوم اللغة أدوات مساعدة في فهم النصوص الشرعية، نحو (إعراب القرآن) للنحاس، و(تفسير غريب القرآن)، و (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة.

ومن التفسير بالرأي التفسير اللغوي؛ وهو كما ذكرنا تفسير ينْحُو إلى اللغة وعلومها، من الصوتيات إلى الصّرف إلى التراكيب إلى البلاغة والدلالة والمعجم، فيجعل من هذه العلوم أدوات وآليات لفهم القرآن والحديث، ممّا يذلّل ما استشكل على الأفهام ويسّرها، وهذا ما تميّز به الإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري في تفسيره للقرآن الكريم، وقد ظهر هذا من خلال كتابيْه (تأويل مشكل القرآن)، و(تفسير غريب القرآن)، غير أنّه لم يُغفل التفسير بالمأثور ولا نقل أقوال السلف عموما في تفسير الآيات القرآنية وتأويلها.

وقد جاء هذا البحث ليكشف إسهامات ابن قتيبة في التفسير والتأويل، وليحدّد المصادر المعتمدة في ذلك، نقول هذا لأنّ ابن قتيبة عُرِف في علم النّقد الأدبي واشتُهر، ولم يُلتفت إليه في التفسير وعلم الحديث إلا قليلا؛ من خلال إشارات بعض المؤلفين إليه، وإنْ كان قد ظهر مؤخرا ما يعزّز مكانته في علوم القرآن والحديث معا.

ولا ريب أنّ قيمة الكتاب العلمية من قيمة تلك المصادر، وقد ذكر بعض الباحثين مصادره في التفسير عموما، وذلك نحو ما ذكره الباحث سعد بن مبارك بن سعد الدوسري في رسالته الموسومة بـ (جهود الإمام ابن قتيبة ومنهجه في علوم القرآن- عرضا ودراسة-)، والدكتور فادي بن محمود الرياحنة في كتابه (منهج ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن وأثره في الدراسات القرآنية). وقد قسمنا البحث بعد المقدمة إلى مبحثين، الأول بعنوان: التفسير؛ حيث قمنا بتقديم مفهومه اللغوي والاصطلاحي، ثم تحدثنا عن نشأته وتطوّره، لنتحدّث بعد ذلك عن جهود وإسهامات ابن قتيبة في التفسير والتأويل، والمبحث الثاني تحت عنوان: مصادر التفسير عند ابن قتيبة؛ وقد تنوّعت ما بين كتب التفاسير، وكتب اللغة، وكتب أخرى؛ نحو الكتب المقدّسة، ولهجات العرب.. ثمّ خاتمة جاءت فيها النتائج التي أفضى إليها البحث،إذْ أبرزنا دور تفسير ابن قتيبة وأثره فيمن جاء بعده.

I. التفسير: نقوم بتحديد المعنى اللغوي، ثمّ المعنى الاصطلاحي حتّى تتضح دلالة المصطلح، وهو مصطلح مهم من مصطلحات علوم القرآن.

1. مفهوم التفسير ونشأته:

1.أ. التفسير لغة: الفَسْر: التَّفْسِير وَهُوَ بيانٌ وتفصيلٌ للْكتاب.وأخبرَني المنذريّ عَن أبي الْعَبَّاس عَن ابْن الْأَعرَابِي قَالَ :التَّفْسِير والتأويل، وَالْمعْنَى وَاحِد.وَقَالَ اللَّيْث :التَّفْسِرةُ: اسمٌ للبَوْل الَّذِي يَنظُر فِيهِ الْأَطِبَّاء يَستدِلون بلوْنه على عِلّة العليل وكلُّ شَيْء يُعْرَف بِهِ تَفْسِير الشَّيْء وَمَعْنَاهُ فَهُوَ تَفسرته.وَقَوله عز وَجلَّ: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾،(الْفرْقَان، 33)، الفَسرُ :

كشف المغطَّى.وَقَالَ بَعضهم :التَّفْسِير: كشف المُرَاد عَن اللَّفْظ الْمُشكل .والتأويل :رد أحد المحتملين إِلَى مَا يُطَابق الظَّاهِر.رسف :قَالَ اللَّيْث: الرَّسْف والرَّسِيف والرَّسَفان: مَشْيُ المقيّد، وَقد رَسَف فِي القَيْد يَرْسُف رَسيفاً فَهُوَ راسف.أَبُو الْهَيْثَم عَن نصير :يُقَال للبعير إِذا قَارب الخطو وأسرع الْإِجَارَة، وَهِي رفع القوائم ووضعها :رَسف يرسُف. فَإِذا زَاد عَن ذَلِك فَهُوَ الرَّتَكان. ثمَّ الْحَفْد بعد ذَلِك.رفس :قَالَ اللَّيْث: الرَّفْسَةُ: الصَّدمة بالرِّجل فِي الصَّدر .يُقَال :رفَسَه برِجْله يَرفُسُه رَفْساً[1].

ويبرز هنا مصطلح آخر يصاحب مصطلح "التفسير" ، وهو مصطلح "التأويل"، والمراد به: رَدُّ أَحَدِ المُحْتَمِلَيْنِ إِلى مَا يُطَابِقُ الظّاهِرَ. كَذَا فِي اللّسَان. وَقيل: التَّفْسِيرُ: شَرْحُ مَا جاءَ مُجْمَلاً من القصَص فِي الكِتَاب الْكَرِيم، وتعْرِيفُ مَا تَدُلّ عَلَيْهِ أَلْفَاظُه الغَرِيبَة، وتَبْيينُ الأُمورِ الَّتِي أُنْزِلَتْ بسَبَبِهَا الآيُ والتَّأْوِيلُ: هُوَ تَبْيِينُ مَعْنَى المُتَشَابِهِ. والمُتشابِهُ: هُوَ مَا لَمْ يُقْطَعْ بفَحْوَاهُ من غَيْرِ تَردُّد فِيهِ، وَهُوَ النَّصُّ. وفُسَارَانُ، بالضّم: بأَصْبَهَانَ، نَقله الصاغانيّ. وممّا يُسْتَدْرَك عَلَيْهِ: التَّفَسُّرُ: الاستفسار. واسْتَفْسَرتُه كَذا: سَأَلْتُه أَنْ يُفَسِّرَه لي. وكُلُّ شيْءٍ يُعْرَفُ بِهِ تَفْسِيرُ الشيْءِ ومَعْنَاه فَهُوَ تَفْسِرته. وَفِي البَصَائر: كُلُّ مَا تَرْجَمَ عَن حالِ شيْءٍ فَهُوَ تَفْسِرَتُه[2].

ومادة (ف س ر) تدلّ على البيان والوضوح، يقول ابن فارس: الْفَاءُ وَالسِّينُ وَالرَّاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى بَيَانِ شَيْءٍ وَإِيضَاحِهِ. مِنْ ذَلِكَ الْفَسْرُ، يُقَالُ: فَسَرْتُ الشَّيْءَ وَفَسَّرْتُهُ. وَالْفَسْرُ وَالتَّفْسِرَةُ: نَظَرُ الطَّبِيبِ إِلَى الْمَاءِ وَحُكْمُهُ فِيهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ[3].

ويستفاد من هذا كلّه أنّ المفهوم اللغوي لهذا المصطلح يدور حول الوضوح والبيان والكشف، وهو المراد من طلب فهم بعض الآيات القرآنية، فالقارئ يريد وضوح وبيان معاني ودلالات تلك الآيات.

1.ب. التفسير اصطلاحا: يقول أبو حيان الأندلسي (ت745هـ) معرّفا التفسير: التَّفْسِيرُ عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ كَيْفِيَّةِ النُّطْقِ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ، وَمَدْلُولَاتِهَا، وَأَحْكَامِهَا الْإِفْرَادِيَّةِ

وَالتَّرْكِيبِيَّةِ، وَمَعَانِيهَا الَّتِي تُحْمَلُ عَلَيْهَا حَالَةُ التَّرْكِيبِ، وَتَتِمَّاتٍ لِذَلِكَ. فَقَوْلُنَا عُلِمٌ هُوَ جِنْسٌ يَشْمَلُ سَائِرَ الْعُلُومِ. وَقَوْلُنَا يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ كَيْفِيَّةِ النُّطْقِ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ هَذَا هُوَ عِلْمُ الْقِرَاءَاتِ. وَقَوْلُنَا وَمَدْلُولَاتِهَا، أَيْ مَدْلُولَاتِ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ، وَهَذَا هُوَ عِلْمُ اللُّغَةِ الَّذِي يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْعِلْمِ. وَقَوْلُنَا وَأَحْكَامِهَا الْإِفْرَادِيَّةِ وَالتَّرْكِيبِيَّةِ هَذَا يَشْمَلُ عِلْمَ التَّصْرِيفِ، وَعِلْمَ الْإِعْرَابِ، وَعِلْمَ الْبَيَانِ، وَعِلْمَ الْبَدِيعِ، وَمَعَانِيهَا الَّتِي تُحْمَلُ عَلَيْهَا حَالَةُ التَّرْكِيبِ شَمِلَ بُقُولِهِ الَّتِي تُحْمَلُ عَلَيْهَا مَا لَا دَلَالَةَ عَلَيْهِ بِالْحَقِيقَةِ، وَمَا دَلَالَتُهُ عَلَيْهِ بِالْمَجَازِ، فَإِنَّ التَّرْكِيبَ قَدْ يَقْتَضِي بِظَاهِرِهِ شَيْئًا، وَيَصُدُّ عَنِ الْحَمْلِ عَلَى الظَّاهِرِ صَادٌ، فَيَحْتَاجُ لِأَجْلِ ذَلِكَ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى غَيْرِ الظَّاهِرِ، وَهُوَ الْمَجَازُ .وَقَوْلُنَا، وَتَتِمَّاتٍ لِذَلِكَ، هُوَ مَعْرِفَةُ النَّسْخِ، وَسَبَبِ النُّزُولِ، وَقِصَّةٍ تُوَضِّحُ بَعْضَ مَا انْبَهَمَ فِي الْقُرْآنِ، وَنَحْوَ ذَلِك[4].

ويعدّ التفسير ضمن اثني عشر علما تدخل في الكلام عن القرآن، وفي هذا يقول ابن جزيّ (ت757ه): "اعلم أن الكلام على القرآن يستدعي الكلام في اثني عشر فنا من العلوم، وهي: التفسير، والقراءات، والأحكام، والنسخ، والحديث، والقصص، والتصوّف، وأصول الدين، وأصول الفقه، واللغة، والنحو، والبيان.فأما التفسير فهو المقصود بنفسه وسائر هذه الفنون أدوات تعين عليه أو تتعلق به أو تتفرع منه، ومعنى التفسير : شرح القرآن وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصه أو إشارته أو فحواه." [5].

والتفسير منه ما اتُّفِق عليه ومنه ما اختُلف فيه، والمختلَف فيه على أنواع، يقول ابن جزي: " واعلم أنّ التفسير منه متفق عليه ومختلف فيه، ثم إنّ المختلف فيه على ثلاثة أنواع: الأوّل :اختلاف في العبارة، مع اتفاق في المعنى :فهذا عدّه كثير من المؤلفين خلافا، وليس في الحقيقة بخلاف لاتفاق معناه، وجعلناه نحن قولا واحدا، وعبّرنا عنه بأحد عبارات المتقدّمين، أو بما يقرب منها، أو بما يجمع معانيها.الثاني :اختلاف في التمثيل لكثرة الأمثلة الداخلة تحت معنى واحد، وليس مثال منها على خصوصه هو المراد، وإنما المراد المعنى العامّ التي تندرج تلك الأمثلة تحت عمومه، فهذا عدّه أيضا كثير

من المؤلفين خلافا، وليس في الحقيقة بخلاف لأنّ كل قول منها مثال، وليس بكل المراد، ولم نعدّه نحن خلافا :بل عبّرنا عنه بعبارة عامّة تدخل تلك تحتها، وربما ذكرنا بعض تلك الأقوال على وجه التمثيل، مع التنبيه على العموم المقصود.الثالث: اختلاف المعنى فهذا هو الذي عددناه خلافا، ورجحنا فيه بين أقوال الناس." [6].

وقد ذكرنا سابقا أنّ الحديث عن مصطلح التفسير يستدعي مصطلحا آخر وهو "التأويل"، وبالبحث والتنقيب عن مفهوم هذا المصطلح، يظهر أنّ العلماء فيه على مذاهب؛ منهم من جعله مرادفا للتفسير، ومنهم من فرّق بينهما بأنْ جعل التأويل للمعنى، والتفسير للفظ، ومنهم من جعل التفسير بمعنى الشرح، والتأويل حمل النصوص على غير ظاهرها؛ وهذا الأخير هو الأصوب كما يرى أهل العلم، يتحدّث ابن جزي عن هذه المسألة، فيقول: فإن قيل: ما الفرق بين التفسير والتأويل؟ فالجواب أن في ذلك ثلاثة أقوال: الأوّل أنهما بمعنى واحد. الثاني: أن التفسير للفظ، والتأويل للمعنى. الثالث: وهو الصواب: أن التفسير: هو الشرح، والتأويل: وهو " حمل الكلام على معنى غير المعنى الذي يقتضيه الظاهر، بموجب اقتضى أن يحمل على ذلك ويخرج على ظاهره وأما القراءات: فإنها بمنزلة الرواية في الحديث، فلا بد من ضبطها كما يضبط الحديث بروايته."[7].

2. نشأة التفسير وأنواعه:

لقد نزّل القرآن بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلّهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه. وكان ينزّل منجّمًا، وآيات آيات لبيان التّوحيد والفروض الدّينيّة بحسب الوقائع. ومنها ما هو في العقائد الإيمانيّة، ومنها ما هو في أحكام الجوارح، ومنها ما يتقدّم ومنها ما يتأخّر ويكون ناسخا له. وكان النّبيّ ﷺ هو المبيّن الشارح لذلك كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَرُونَ﴾، (النحل، 44)، فكان النّبيّ ﷺ يبيّن المجمل من المفصّل، ويميّز النّاسخ من

المنسوخ، ويوضّح المطلق من المقيّد، فتعلّم الصّحابة كلّ ذلك منه، فرووه ونقلوه عنه، كما عرفوا أسباب نزول الآيات.[8].

ومع ما تعلموه من نبيّهم صلّى الله عليه وسلَّم، من خلال تبيانه لبعض معاني الآيات، عن طريق استثارتهم، أو الإجابة عن سؤال أحدهم، أو القيام بفعل ما؛ فإنّهم كانوا يتفاوتون في الفهم للقرآن الكريم، فقد يغيب عن الواحد منهم ما لا يغيب عن الآخر، ولعلّ هذا ما يدلّ على التفاوت الفقهي الحاصل عندهم لبعض القضايا والمسائل، وكان الصحابة رضي الله عنهم جميعا يعتمدون في تفسيرهم للقرآن في عصر الإسلام الأول على الآتي:

أولا-تفسير القرآن بالقرآن: الأصل في التفسير هو شرح القرآن بالقرآن بما في ذلك القراءات، لأنّ القراءة مع القراءة بمنزلة الآية مع الآية، فما قد يرد في الموضوع الواحد مجملا في آية يرد في أخرى مفصّلا، وما يجئ مطلقا يجئ تارة أخرى مقيّدا، وما ينزل عامّا قد يخصص، وما ينزل ابتداءً في حكم ما قد ينسخ بعدها، وهكذا.

ثانيا- تفسير القرآن بالسنة: السُّنّة هي المصدر الثاني في التشريع الإسلامي؛ وهي شارحة ومبيّنة للقرآن، فقوله تعالى مثلا: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ﴾، (البقرة، 42) لا يُدرى كيف تقام الصلاة، فقال عليه الصلاة والسلام: (صلوا كما رأيتموني أصلي)[9].

ثالثا-الفهم والاجتهاد: إنْ فقد الصحابي الأصل الأول والثاني في التفسير فإنه يلجأ إلى ما عنده من أدوات كاللغة وكلام العرب من أمثال وأشعار، فيقوم بتفسير وتوجيه بعض الآيات حسب مقتضى الحال، ومن المعلوم أنّ الصحابة كانوا أعلم من غيرهم بمقاصد الشرع[10].

وتداول ذلك التّابعون من بعدهم ونُقل ذلك عنهم. ولم يزل متناقلا بين الصّدر الأوّل والسّلف حتّى صارت المعارف علوما ودونت الكتب فكتب الكثير من ذلك ونقلت

الآثار الواردة فيه عن الصّحابة والتّابعين وانتهى ذلك إلى الطّبريّ والواقديّ والثّعالبيّ وأمثال ذلك من المفسّرين فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار[11].

وبالنظر إلى ما سبق يقسم العلماء التفسير إلى نوعين رئيسيْن وهما :التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي أو الدراية، ومنهم من يضيف إليه التفسير الإشاري، ومنهم من يجعله مستقلا:

أولا-التفسير بالمأثور: والمراد بالمأثور تفسير القرآن بالقرآن، أو تفسير القرآن بالأحاديث النبوية الشريفة، أو تفسيره بأقوال الصّحابة والتابعين، نحو تفسير الإمام ابن جرير الطبري (ت310ه) المسمّى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، وتفسير الإمام ابن كثير(ت774ه)، المسمّى (تفسير القرآن العظيم)، وإنْ كان الإمامان قد بثّا في تفسيريْهما آراءً واجتهادات وترجيحات تعتمد على الرأي والنّظر، وكذلك تفسير (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) للإمام السيوطي (ت911ه)[12].

ويذكر الباحث محمد علي الحسن أن اعتبار تفسير القرآن بالقرآن من التفسير بالمأثور من باب الاصطلاح ولا مشاحة في الاصطلاح، لأنّ إطلاق الأثر على التفسير القرآني فيه نظر؛ إذ أنّ الأثر كما هو معروف يطلق على ما روي عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين.[13].

ثانيا-التفسير بالرأي: هو تفسير القرآن بحسب اجتهاد المفسرين ومعارفهم في اللغة والأصول، وغيرها. وعندما نقول تفسير بالرأي لا يعني ذلك أن متن الكتاب كلّه كذلك، وإنّما صاحبه يستند في أكثره إلى الرأي، ومعظم كتب التفسير من هذا النوع نحو(الكشاف) للزمخشري (ت538ه)، و(مفاتيح الغيب) للرازي (ت606ه)، وتفسير (البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي(ت776ه)، وغيرها[14].

ثالثا-التفسير الإشاري: تأويل آيات القرآن الكريم بغير ظاهرها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضا، فالتفسير الإشاري لا يرتكز على مقدمات علمية، بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجف العبارات هذه الإشارات القدسية، وتنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية.[15].

وقد اختلف العلماء في قبول التفسير الإشاري أو رده، فمنهم من قبله، ومنهم من اعتبره من صفات الكمال والعرفان، ومنهم من ردّه، ومنهم من اعتبره إلحادا في آيات الله وخروجا به عن الحق[16].

يقول الزركشي (ت794ه) عن التفسير الصوفي: فَأَمَّا كَلَامُ الصُّوفِيَّةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ فَقِيلَ :لَيْسَ تَفْسِيرًا وَإِنَّمَا هِيَ مَعَانٍ وَمَوَاجِيدُ يَجِدُونَهَا عند التلاوة كقول بعضهم فيقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾، (التوبة، 124)إِنَّ الْمُرَادَ: النَّفْسُ فَأَمَرَنَا بِقِتَالِ مَنْ يَلِينَا لِأَنَّهَا أَقْرَبُ شَيْءٍ إِلَيْنَا وَأَقْرَبُ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ نَفْسُهُ[17].

وَقد شدّد البعض وأغلظ على هذا النوع من التفسير بأنْ أخرجه من دائرة الإسلام، غير أنّ الإمام الزركشي ذكر قاعدة في التفسير، حيث يقول: الْحَقُّ أَنَّ عِلْمَ التَّفْسِيرِ مِنْهُ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَى النَّقْلِ كَسَبَبِ النُّزُولِ وَالنَّسْخِ وتعيين المبهم وتبيين المجمل ومنه مالا يَتَوَقَّفُ وَيَكْفِي فِي تَحْصِيلِهِ التَّفَقُّهُ عَلَى الْوَجْهِ المعتبر[18].

3. جهود ابن قتيبة في التفسير:

لقد اشتهر الإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، النحوي اللغوي بمصنفاته البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة نافعة، وقد اشتغل ببغداد وسمع بها الحديث على إسحاق بن راهويه، وطبقته، وأخذ اللغة عن أبي حاتم السجستاني

وذويه، وهذا ما أهله ليقول في كلّ فن؛ حيث صنف وجمع وألّف المؤلفات الكثيرة : منها كتاب (المعارف)، و (أدب الكاتب) الذي شرحه أبو محمد بن السيد البطليوسي، وكتاب (تأويل مشكل القرآن) و(غريب الحديث)، و (تفسير غريب القرآن)، و(عيون الأخبار)، و(إصلاح الغلط)، وكتاب (الخيل)، وكتاب (الأنوار)، وكتاب (المسلسل والجوابات)، وكتاب (الميسر والقداح)، وغير ذلك[19].

ويبدو أنّ الرجل عُرِف في مجال النقد الأدبي أكثر من أي جانب آخر، والحقّ أنّ للرجل أعمالا مهمّة لا بدّ من إماطة اللثام عنها، نحو جهوده في علم القراءات، وجهوده اللغوية عموما، فقد عُدّ على رأس المدرسة البغدادية، ومن إسهاماته أيضا-وهو مدار حديثنا- جهوده في مجال التفسير، فقد ألّف كتابين وهما (تفسير غريب القرآن)، و(تأويل مشكل القرآن) عالج فيهما ما تعلّق بالمشكل القرآني الحاصل في بعض الآيات، فالكتابان من مشكاة واحدة، وغرض تأليفهما واحد.

وتظهر جهوده كما أسلفنا في كتابيه (تفسير غريب القرآن)، و (تأويل مشكل القرآن)، وسنقتصر على الأخير إذ هو مدار بحثنا هذا، وقد ذكره جلّ من ترجم لابن قتيبة كابن خلكان، والخطيب البغدادي، والسيوطي، وابن كثير، وابن الأنباري، والداودي، والقفطي، وابن عماد، وغيرهم، وقد ذكره المصنِّف في (أدب الكاتب)، و(تأويل مختلف الحديث)، و(الأنواء)، و (تفسير غريب الحديث)[20].

وقد قام الأستاذ السيد أحمد صقر بتحقيق الكتاب، حيث قدّم له مقدّمة ضافية، كشف فيها عن القيمة العلمية للكتاب، وتحدّث فيها عن المسائل اللغوية التي سبق ابن قتيبة غيرَه فيها، نحو إرجاع معاني الألفاظ ذات الأصوات المشتركة إلى أصل واحد، إضافة إلى حديثه عن أبواب كثيرة من البلاغة والتي تُظهر مجهوداته في علم البلاغة وأنّها تمثّل الحلقة المفقودة فيها، كما تحدّث عن سيرته ذاكرا مصنَّفاته وشيوخه وتلامذته، وآراء وأقوال العلماء فيه، فقد وُصف بأنّه كان دَيِّنًا ثقة فاضلا وتصانيفه كلها

مفيدة، غير أنّ البعض تكلّم فيه وذمّه بسبب حديثه عن قراءة حمزة الزّيات أحد القراء السبعة، وبسبب نقده لأبي عبيدة، وربما بسبب عدم فهم شيء من عباراته، فذبّ المحقّق عنه، وفنّد ما قيل فيه جملة وتفصيلا. كما ذكر أنّ ما قام به ابن مطرف الكناني بالجمع بين (غريب القرآن)، و (تأويل مشكل القرآن) تحت اسم (القرطين) ليس عملا علميا، إنّما هو عمل فردي ذاتي يفتقد إلى الموضوعية والمنهجية الصحيحة، فالباحث ناقل للمعرفة كما هي، وله أن ينتقدها لا أن يحذف ما لم يرق له، وهذا ما فعله الكناني. ثمّ ختم تقديمه بالحديث عن كتاب (تأويل مشكل القرآن) بأنّه ثمرة طيبة من ثمار الدفاع القويم الذي أبلى فيه ابن قتيبة بلاءً حسنا، وردّ فيه كيد الكائدين وطعن الطاعنين، وأثبت جهلهم بعلوم القرآن وما يتعلّق بها من قراءات وأسباب النزول، والعموم والخصوص، والمطلق والمقيد، والمفصل والمجمل، إضافة إلى جهلهم بالعربية وأساليبها، ولا أدلّ على ذلك من عدم طعن فصحاء وفطاحل العرب في القرآن من الناحية اللغوية على عهد رسول الله ﷺ، فقد اعترضوا على مصدره لا على لغته[21].

وقد حوى الكتاب أبوابا مهمة تتعلّق أساسا بعلوم القرآن، مثل القراءات، وعلوم العربية من صوتيات؛ نحو حديثه عن عدد أصوات العربية البالغ ثمانية وعشرين صوتا، مبرزا تمايزها عن سائر لغات الأمم كما يقول هو، وكذلك حديثه عن الدلالة الصوتية التي تظهر من خلال الخصائص الفونولوجية نحو (قضم، خضم)، وصرف؛ كحديثه عن الصيغ والأوزان ودورها في الدلالة الصرفية، وفي التراكيب تحدّث عن قضايا كثيرة، منها وظائف حروف المعاني، وفي البلاغة نجد المجاز وغيره، وفي المستوى الدلالي نجد التوسع اللغوي مثلا، وفي الجانب المعجمي نجد شرحه لبعض المفردات الغريبة الواردة في النص القرآني[22].

لقد جمع ابن قتيبة بين علوم القرآن وعلوم اللغة في إخراج كتابه هذا، غير أنّه طبع عليه الجانب اللغوي؛ والمقصود به التفسير اللغوي ومعناه بيان معاني القرآن بما

ورد في لغة العرب؛ أما الشق الأول من التعريف، وهو بيان معاني القرآن: فإنه عام يشمل كل مصادر البيان في التفسير؛ كالقرآن، والسنة، وأسباب النزول، وغيرها. وأما الشق الثاني منه، وهو بما ورد في لغة العرب :فإنه قيد واصف لنوع البيان الذي وقع لتفسير القرآن، وهو ما كان طريق بيانه عن لغة العرب[23].

هذا، وإنّ الجانب اللغوي مهمّ لأنّ القرآن نزل بلغة العرب، فلا فهم إلّا عن طريق توظيف علوم العربية، مع مراعاة أسباب النزول وأقوال السلف في ذلك، وهذا الإخراج العلمي جاء كما ذكرنا سابقا لدحض أقاويل الملاحدة في القرآن، ولإزالة الغموض عند القارئ عموما، وعناية الرجل في تفسير القرآن باللغة ظاهرة بيّنة[24].

ويختصر ابن قتيبة لنا منهجه وغايته من وضع كتابه، فيقول: فأحببت أن أنضح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيرة، والبراهين البينة، وأكشف للناس ما يلبسون. فألفت هذا الكتاب، جامعا لتأويل مشكل القرآن، مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح، وحاملا ما لم أعلم فيه مقالا لإمام مطلع- على لغات العرب لأري به المعاند موضع المجاز، وطريق الإمكان، من غير أن أحكم فيه برأي، أو أقضي عليه بتأويل. ولم يجز لي أن أنص بالإسناد إلى من له أصل التفسير إذ كنت لم أقتصر على وحي القوم حتى كشفته، وعلى إيمائهم حتى أوضحته، وردت في الألفاظ ونقصت وقدمت وأخرت، وضربت لبعض ذلك الأمثال والأشكال، حتى يستوي في فهمه السامعون[25].

يتلخص منهج ابن قتيبة التفسيري ذي الطابع اللغوي في الخطوات الآتية:

أولا-تفسير القرآن بالقرآن: بما في ذلك القراءات، والمصاحف، ومثال ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، (المرسلات، 29) من عذاب الله سبحانه وعقابه، انطلقوا من ذلك إلى ظل من دخان نار جهنم قد سطع ثم افترق ثلاث فرق، وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ارتفع أن يتشعب .فيكونون فيه إلى أن يفرغ من

الحساب، كما يكون أولياء الله في ظل عرشه أو حيث شاء من الظل إلى أن يفرغ من الحساب، ثم يؤمر بكل فريق إلى مستقرّه من الجنة أو النار. ثم وصف الظل فقال: لا ظَلِيلٍ أي: لا يظلّكم من حرّ هذا اليوم بل يدنيكم من لهب النار إلى ما هو أشد عليكم من حر الشمس، ولا يغني عنكم من اللهب. وهذا مثل قوله سبحانه: ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾،(الواقعة، 47/46)،واليحموم: الدّخان وهو سرادق أهل النار فيما ذكر المفسرون[26].

ثانيا-تفسير القرآن بالحديث: ومثال ذلك، استدلاله بحديث نبوي على معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾، (الشعراء، 226) في وقت القوّة والقدرة، فإنّهم في حال الكبر غير منقوصين، لأنّا نعلم أنا لو لم نسلبهم القدرة والقوّة لم يكونوا ينقطعون عن عمل الصّالحات، فنحن نجري لهم أجر ذلك ولا نمنّه، أي لا نقطعه ولا ننقصه. وهو معنى قول المفسرين. ومثله قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، (العصر، 2)، والخسر :النقصان،﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، (العصر، 3) فإنهم غير منقوصين. ونحوه قول رسول الله صلّى الله عليه وسلم[27]: (يقول الله للكرام الكاتبين: إذا مرض عبدي فاكتبوا له ما كان يعمل في صحته، حتى أعاقبه أو أقبضه)[28].

ثالثا-تفسير القرآن بأقوال السلف: ومن ذلك ما ذكره القتيبي عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى:﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَاكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَاكُلُوا جَمِيعاً أَوَ اَشْتاتاً﴾، (النور، 59)، فقد قالت رضي الله عنها: كان المسلمون يُوعبون أي يخرجون جميعا مع رسول الله ﷺ، في المغازي ، ويدفعون مفاتيحهم إلى الضّمنى، وهم الزّمنى، ويقولون لهم :قد أحللنا

لكم أن تأكلوا مما في منازلنا. فكانوا يتوقّون أن يأكلوا من منازلهم حتى نزلت هذه الآية. وإلى هذا يذهب قوم، منهم الزّهري[29].

رابعا-تفسير القرآن عن طريق اللغة: الأمثلة في هذا كثيرة، منها استدلاله بقول الأصمعي في المثل (سدّ ابن بيض الطريق)[30]، أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً﴾، (الفرقان، 47) أي سترا وحجابا لأبصاركم. وقد يكنون باللباس والثوب عما ستر ووقى، لأنّ اللباس والثوب واقيان ساتران.وقال الشاعر:

كــثوب ابن بيــض وقاهــم بــه فــسدّ عــلى السّــالكين السّبيــلا[31]

قال الأصمعي: ابن بيض رجل نحر بعيرا له على ثنيّة فسدّها فلم يقدر أحد أن يجوز، فضرب به المثل فقيل: سدّ ابن بيض الطريق[32]. ويتخلّل ذلك كلّه اجتهاداته الشخصية في علوم القرآن وتفسيره، وفي علوم اللغة.

II.مصادر التفسير عند ابن قتيبة:

انطلاقا من قراءتنا لكتاب (تأويل مشكل القرآن) بهدف إحصاء مصادره التي اعتمد عليها، تبيّن لنا أنّها متنوّعة ومتعدّدة، لكنّها لا تخرج عن دائرة القرآن وعلومه واللغة وعلومها، كما لحظنا أنّه عزا بعضها إلى أصحابها عن طريق الإشارة، نحو قوله: قال الخليل، وقال الفراء، وذِكرُ القائل يحيل تلقائيا إلى مؤلَّفاته إنْ وُجدت، وتركَ بعضًا منها دون عزو، نحو قوله: قال السلف، قال بعض النحويين، وقال بعضهم، ويضاف إلى ذلك رواياته عن شيوخه أو عن جلسائه، ولم يقف عند ذلك بل أخذ من الكتب المقدسة أيضا، وأخذ عن العجم، كما لا ننس اجتهاداته وتخريجاته الشخصية.

كلّ هذه المصادر المتنوّعة أضفت على الكتاب قيمة علميّة، وجعلت منه مصدرا رئيسا في باب التفسير، وهذا ما ظهر في المؤلفات التي صُنّفت بعده، وقد صبّ كتابه في قالب علمي منهجي شدّ الناظرين إليه، ويُذكر أنّ كتبه كلّها كذلك، ولا أدلّ من استشهاد

المفسرين من بعده بأقواله في كتبهم، نذكر منهم دون تمثيل: (معالم التنزيل) للبغوي، و(الجامع لأحكام القرآن) للإمام القرطبي، و(الإبانة عن معاني القراءات) لمكي بن أبي طالب القيسي، و(النشر في القراءات العشر) لابن الجزري، و(تذكرة الأريب في تفسير الغريب)، و(نزهة القلوب) و(زاد المسير في علم التفسير) لابن الجوزي، و(التبيان في تفسير القرآن) لابن الهائم المصري، و(المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم) للجواليقي، وغيرها كثير(33).

1. التفاسير: ونريد بالتفاسير هنا ما نقله ابن قتيبة من أقوال وآراء الصحابة والتّابعين، وكذلك ما أُلّف في تفسير القرآن وعلومه، فقد نقل عن عدد من الصحابة والتابعين، وأفاد ممّا وُضع في التفسير أيضا:

أولا-أقوال الصحابة والتابعين: نقل ابن قتيبة كلّ ما له علاقة بموضوعه المعالج؛ فيستشهد بالقول، وبالمثل، وبالشعر بغية تحقيق هدفه المتمثّل في تذليل صعوبات الفهم لدى البعض، فنقل نقلا عاما عن أبي بكر الصديق، وعن عمر بن الخطاب، وعن عثمان بن عفان، وعن علي بن أبي طالب، وحكيم بن حزام، وزيد بن أرقم، وعائشة أم المؤمنين، وأبّي بن كعب أحد أشهر قراء الصحابة، وأنس بن مالك، وعبد الله بن مسعود، وقد نقل عن عبد الله بن عباس وأكثر، كيف لا وهو حبر الأمّة وترجمانها، ونكتفي بمثال واحد هنا لضيق المقام، يقول ابن قتيبة في (باب تأويل الحروف التي ادُّعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم)، منها الحروف المقطعة، أنّ العلماء اختلفوا فيها، فمنهم من جعلها أقساما، وبعضهم يجعلها حروفا مأخوذة من صفات الله تعالى، يجتمع بها في المفتتح الواحد صفات كثيرة، كقول ابن عباس في: ﴿كهيعص﴾، (مريم، 1) : إن الكاف من كاف، و الهاء من هاد، و الياء من حكيم، و العين من عليم، والصاد من صادق(34).

ونذكر من التابعين ومن عاصرهم: الشعبي، وسعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة، وقتادة، والزهري، وابن عيينة، وأبو صالح، وابن الكلبي، ونمثّل لهم بقتادة على اعتبار أنّه أكثر من النقل عليه، يقول ابن قتيبة وهو يتحدّث عن الجمع الذي يراد به واحد واثنان، مستشهدا بقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾، (النور، 2)؛ واحد واثنان فما فوق. وقال قتادة في قوله تعالى:﴿إِنْ يُعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ﴾، (التوبة، 66)؛ كان رجل من القوم لا يمالئهم على أقاويلهم في النبي صلى الله عليه وسلم، ويسير مجانبا لهم، فسماه الله طائفة وهو واحد. وكان قتادة يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾، (الحجرات، 4)؛ هو رجل واحد ناداه: يا محمد، إن مدحي زين، وإن شتمي شين. فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ويلك، ذاك الله جل وعزّ[35]. ونزلت الآية[36].

ثانيا- المصنَّفات: اعتمد ابن قتيبة على كتاب (معاني القرآن) للفراء، ونمثّل لذلك بقوله وهو يبحث مسألة (أمر الواحد والاثنين والثلاثة فما فوق أمرك الاثنين): فتقول: "افعلا"، نحو قوله الله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾، (ق، 24)، والخطاب لخزنة جهنم، أو زبانيتها. قال الفراء: والعرب تقول: ويلك ارحلاها وازجراها، وأنشد لبعضهم[37]:

فقلت لصاحبي لا تحبسانا بنزع أصوله واجتز شيحا[38]

قال آخر:

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر وإن تدعاني أحم عرضا ممنعا[39]

قال الفراء : ونرى أصل ذلك أن الرفقة أدنى ما تكون: ثلاثة نفر، فجرى كلام الواحد على صاحبيه، ألا ترى أن الشعراء أكثر شيء قيلا :يا صاحبي، ويا خليلي[40].

كما أخذ عن أبي عبيدة معمر بن المثنى في (مجاز القرآن)[41] من ذلك ما نسبه إليه في تفسير قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، (الأنبياء،37)؛ أي خلق العجل من الإنسان، يعني العجلة. كذلك قال أبو عبيدة[42]. واستفاد من تفسير عبد الرزاق الصنعاني أيضا، واستشهد به في غير موضع، من ذلك ما ذكره ابن قتيبة أثناء تخريجه لـ "وَيْكَأَنَّ"من قوله تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخُسِفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ﴾، (القصص، 82)، وروى عبد الرّزاق[43] عن معمر، عن قتادة أنه قال: ويكأنّ: أولا يعلم أن الله يبسط الرزق لمن يشاء. وهذا شاهد لقول الكسائي. وقد نبّه إلى العودة إلى كتبه التي تناول الموضوع الذي هو بصدد معالجته، من ذلك كتاب (القراءات)، و(تفسير غريب الحديث)، و (تفسير غريب القرآن).

2. اللغة: يدخل في هذا المصدر ما أُلّف في علوم اللغة وفروعها، ومن المعلوم أنّ واضعي الأسس والمنطلقات الأولى للغة أرسوا قواعدها انطلاقا من القرآن الكريم خدمة له، ولذا أوردوا آراءً وأقوالا في تفسير بعض الآيات في كتبهم، ويشمل المصدر أيضا رواياته عن شيوخه:

أولا-معجم العين للخليل: ومعجم العين أول معجم عربي جمع اللغة وأحصى مفرداتها، وقد فُطِر على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي بطريقة رياضية، رتّب فيها الخليل حروف المعجم على حسب مخارجها، وقد ضمّ المعجم الصوتيات والصرف والتراكيب والبلاغة والدلالة، وفيه شيء من التفسير، وهذا ذائع ومنتشر فالكلّ يستشهد بالقرآن، ويبدو أنّ ابن قتيبة اطلّع عليه وأخذ منه، من ذلك ما ذكره عن رأيه في "ويْكَأَنَّ" وذكر الخليل[44] أنها مفصولة :وي، ثم تبتدئ فتقول :كأنّ الله[45].

ثانيا-كتاب سيبويه: كتاب سيبويه حوى جلّ علوم اللغة، وقد نقل فيه صاحبه ما تعلّمه وسمعه من الخليل، وغيره، مع جهوده الخاصة، ويبدو أنّه يمثّل مرحلة متقدّمة في علم العربية، هو الآخر استفاد منه ابن قتيبة، ونقل عنه، من ذلك ما ذكره

سيبويه[46] في "لات" من أنّها (مشبّهة) بليس في بعض المواضع، ولم تمكّن تمكّنها، ولم يستعملوها إلا مضمرا فيها، لأنها ليست كليس في المخاطبة والإخبار، عن غائب، ألا ترى أنك تقول: ليست وليسوا، وعبد الله ليس ذاهبا، فتبني عليها، "ولات" لا يكون فيها ذاك، قال الله تعالى: ﴿وَلاتَ حِينَ مَناصٍ﴾، (ص، 3)، أي ليس حين مهرب[47].

ثالثا-رواياته: كما أنّ ابن قتيبة نقل من الكتب، فإنّه روى عن شيوخه، أو عن جلسائه، كما أنّه نقل مباشرة أقوال الأعراب في مسائل لغوية معينة، فمن عباراته التي تدلّ على ذلك قوله: حدّثني الأصمعي، وقال بعضهم، والعرب تقول، وهكذا، نذكر من هؤلاء: المازني، والأصمعي، وأبي حاتم، وابن الأعرابي، والزيادي، والكسائي، وأبي عمرو بن العلاء، وهؤلاء علماء في العربية وفي القراءات، بل في كلّ ما يتعلّق بالقرآن، وكمثال على ذلك ذكر ابن قتيبة قول أبي عمرو بن العلاء في "نَقْدِرَ" من قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْه﴾، (الأنبياء، 86)، فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ، أي لن نضيّق عليه، وأنّا نخلّيه ونهمله. والعرب تقول :فلان مقدّر عليه في الرزق، ومقتّر عليه، بمعنى واحد، أي مضيّق عليه. ومنه قوله تعالى:﴿وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾، (الفجر، 16) وقدر- بالتخفيف والتثقيل -قال أبو عمرو بن العلاء: قتر وقتّر وقدر وقدّر، بمعنى واحد، أي ضيّق. فعاقبه الله عن حميّته وأنفته وإباقته، وكراهيته العفو عن قومه، وقبول إنابتهم- بالحبس له، والتّضييق عليه في بطن الحوت[48].

3. كتب أخرى: ومن مصادر ابن قتيبة أيضا الكتب المقدّسة، فقد نقل منها أيضا، فأخذ من الإنجيل، ومن الزبور، ومن التوراة، فقد تحدّث في (باب القول في المجاز) عن المجاز، قائلا أنّ كثيرا من الناس غلطوا من جهته في التأويل، وتشعّبت بهم الطرق، واختلفت النّحل؛فالنصارى تذهب في قول المسيح عليه السّلام في "الإنجيل": (أدعو أبي، وأذهب إلى أبي)،وأشباه هذا، إلى أبوّة الولادة. ولو كان المسيح قال هذا في نفسه خاصة دون غيره، ما جاز لهم أن يتأوّلوه هذا التأويل في الله- تبارك وتعالى عما يقولون علوا

كبيرا- مع سعة المجاز، فكيف وهو يقوله في كثير من المواضع لغيره؟ كقوله حين فتح فاه بالوحي: إذا تصدّقت فلا تعلم شمالك بما فعلت يمينك، فإنّ أباك الذي يرى الخفيّات يجزيك به علانية، وإذا صلّيتم فقولوا: يا أبانا الذي في السماء ليتقدّس اسمك، وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير أبيك. وقد قرؤوا في "الزّبور" (أن الله تبارك وتعالى قال لداود عليه السّلام: سيولد لك غلام يسمّى لي ابنا وأسمّى له أبا). وفي "التّوراة" (أنه قال ليعقوب عليه السلام: أنت بكري. وتأويل هذا أنه في رحمته وبرّه وعطفه على عباده الصالحين، كالأب الرحيم لولده-ولله المثل الأعلى-. وكذلك قال المسيح للماء: هذا أبي،وللخبز: هذا أمي، لأنّ قوام الأبدان بهما، وبقاء الروح عليهما، فهما كالأبوين اللّذين منهما النّشأة، وبحضانتهما النّماء. وكانت العرب تسمّي الأرض أمّا، لأنها مبتدأ الخلق، وإليها مرجعهم، ومنها أقواتهم، وفيها كفايتهم[49]. وقد أخذ من كتب العجم أيضا دون أن ينسبها، ودون أن يذكر لها عنوانا، من ذلك ما ذكره أثناء حديثه عن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴾، (الجن، 8) فيما ذكر أنّ في أيدي الناس كتب من كتب الأعاجم وسيرهم :تنبئ عن انقضاض النجوم في كلّ عصر وكلّ زمان[50].

خاتمـة:

قدّمنا فيما سبق مصادر الإمام ابن قتيبة في إعداد وإخراج كتابه (تأويل مشكل القرآن) ورأينا أنّها متنوّعة ومتعدّدة، وقد قسمناها إلى ثلاثة أنواع، أوّلها ما تعلّق بعلوم القرآن وتفسيره، وانطلقنا في سرد ذلك زمنيا بدءا بالصحابة، ثمّ التابعين، وحتى من عاصرهم، وأدخلنا كلّ ما أُثر عنهم قولا كان أم كتابة، وأضفنا إليه ما صُنف في التفسير ومعاني القرآن، نحو تفسير الصنعاني، و(معاني القرآن) للفراء، و(مجاز القرآن) لأبي عبيدة، والثاني ما له علاقة باللغة وعلومها سواء ما تعلّق بالمصنّفات، نحو: (العين) للخليل، و(الكتاب) لسيبويه، أو ما تعلّق بالروايات، التي أَخَذَت صيغا متعدّدة، مثل:

حدّثني، وأنشدني، وقال بعض السلف، وقال بعض النحويين، وأمّا المصدر الثالث فهو ما تعلّق بالكتب السماوية، كالزبور، والتوراة، والإنجيل، وكذا كتب العجم.

إنّ هذه المصادر المتنوّعة والجامعة المانعة تحمل قيمة علمية في ذاتها وفي المؤلّفات التي تنهل منها، وما زاد من قيمة الكتاب منهج المؤلِّف وأسلوبه الذي امتاز بالوضوح والسلاسة والدّقة في إصابة الهدف، ولا جرم في ذلك فصاحبه اطّلع مبكرا على فن التصنيف عند غير العرب وأفاد منه، وخير دليل على ذلك كثرة المصنَّفات وتنوّعها، وقد ظهر أثره فيما أُلّف بعده في علم القراءات، وفي غريب القرآن، وفي التفسير، وفي علوم القرآن، وحتّى في المسائل اللغوية، وتباين أثره عند هؤلاء؛ فمنهم من نقل عنه ونسب إليه، ومنهم من نقل عنه دون عزو، لكنّه حاضر في كثير من كتب التفسير.

لقد زاوج المصنِّفُ بين المأثور عن النبي ﷺ وأقوال الصحابة والتابعين، وبين اللغة انطلاقا من الصوت، إلى الصرف، إلى علم التراكيب، والبلاغة والدلالة، وكذا لهجات العرب الذين نقل عن بعضهم مباشرة؛ في دفع الإشكال الحاصل في بعض الآيات، وأثبت بذلك أنّ القارئ بحاجة ماسّة للتزوّد بهذه العلوم ابتغاءَ دحض الباطل وزهقه، وإظهار الحقّ ونصرته، وأنّ القراءة الحرفية للنص دون مراعاة لروح النص وذلك بمعرفة لغة العرب غير كاف لفهم الخطاب القرآني ذي الأسلوب العالي، وأنّ نزغات الطاعنين في القرآن تفتقد إلى هذا.

*** *** ***

الهوامش:

[1] **محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، ج12، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 2001، ص: 283.**

[2] **محمد بن محمد الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج13، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، الكويت، 1965، ص: 323-324.**

[3] أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ج4، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، 1979، ص: 504.

[4] أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج1، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420، ص: 26.

[5] محمد بن أحمد بن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ج1، تحقيق: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط1، بيروت، 1416، ص: 15.

[6] ينظر: المرجع نفسه، ص: 16.

[7] ينظر: المرجع نفسه، ص: 16.

[8] ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، ط2، بيروت، 1988، ص: 553-554.

[9] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ج8، تحقيق: زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، بيروت، 1422، ص: 9.

[10] ينظر: محمد أحمد معبد، نفحات من علوم القرآن، دار السلام، ط2، القاهرة، 2005، ص: 129.

[11] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ص: 554.

[12] ينظر: محمد علي الحسن، المنار في علوم القرآن مع مدخل إلى أصول التفسير ومصادره، قدّم له: محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 2000، ص: 260.

[13] ينظر: المرجع نفسه، ص: 260.

[14] ينظر: المرجع نفسه، ص: 284.

[15] فهد بن عبد الرحمن الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ج1، إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط1، المملكة العربية السعودية، 1986، ص: 367.

[16] المرجع نفسه، ص: 368.

[17] محمد بن عبد الله الرزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي وشركائه، ط1، القاهرة، 1957، ص: 170.

[18] المرجع نفسه، ص: 171.

[19] ينظر: إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، ج11، دار الفكر، بيروت، 1986، ص: 48.

[20] علي بن نفيع العلياني، عقيدة الإمام ابن قتيبة، مكتبة الصديق، ط1، الطائف، المملكة العربية، 1991، ص: 69.

[21] السيد أحمد صقر، مقدمة تحقيق تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، 1973.

[22] ينظر: عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، 1973.

[23] الطيار، مساعد بن سليمان, التفسير اللغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، ط1، السعودية، 1432، ص: 38.

[24] ينظر: سعد مبارك الدوسري، جهود الإمام ابن قتيبة ومنهجه في علوم القرآن، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1432هـ، ص: 339.

[25] عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تعليق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2002، ص: 23-24.

[26] المرجع نفسه، ص: 194.

[27] عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج7، دار الفكر، بيروت، لبنان، ص: 596.

[28] المرجع السابق، ص: 205.

[29] المرجع السابق، ص: 199.

[30] ينظر: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، جمهرة الأمثال، ج1، دار الفكر، بيروت، لبنان، ص: 520.

[31] محمد بن سلّام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج2، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدّة، ص: 725.

[32] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تعليق: إبراهيم شمس الدين، ص: 94.

[33] فادي بن محمودالرياحنة، منهج ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن وأثره في الدراسات القرآنية، دار دجلة، عمّان، 2012، ص: 698-763.

[34] المرجع السابق، ص: 182. وانظر أيضا: 47-48-99-127-162-168-210-251...

[35] محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، ج1، تحقيق: مجموعة من المحققين، شركة مصطفى البابي الحلبي، ط2، القاهرة، 1975، ص: 387.

[36] ابن قتيبة, تأويل مشكل القرآن، تعليق: إبراهيم شمس الدين، ص: 173. انظر أيضا: 89-118-195-234...

[37] ينظر: يحي بن زياد الفراء، معاني القرآن، ج3، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرين، دار المصرية، ط1، ص: 78.

[38] يعيش بن علي بن يعيش, شرح المفصل للزمخشري، ج5، قدّم له: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2001، ص: 408.

[39] عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ، ص: 619.

[40] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تعليق: إبراهيم شمس الدين، ص: 178. انظر أيضا: 129-186-189-297...

[41] ينظر: أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، ج1، تحقيق: فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1381هـ، ص: 38.

[42] المرجع السابق، ص: 125. انظر أيضا: 47-66-151-240...

[43] ينظر: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تفسير عبد الرزاق، ج1، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1419هـ، ص: 498.

[44] ينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج8، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ص: 443.

[45] ابن قتيبة, تأويل مشكل القرآن، تعليق: إبراهيم شمس الدين، ص: 281.

[46] ينظر: عمرو بن عثمان سيبويه، الكتاب، ج1، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1988، ص: 58.

[47] المرجع السابق، ص: 282.

[48] المرجع السابق، ص: 233.

[49] المرجع السابق، ص: 69.

[50] المرجع السابق، ص: 242.